العناصر الأولية
للتصوف الإسلامي

بقلم الدكتور محمد غلاب
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

يرجع التصوف الاسلامى الى عهد النبى (ص) فهو أول صوفى فى الاسلام ، اذ أن اعتزاله فى غار حراء قبل البعثة ،واعتكافه فى المسجد بعدها لايجهله أحد من المسلمين ولا من المستشرقين الذين عنوا بدراسة الحركة الاسلامية. وقد ترسم كثير من الصحابة الاولين خطاه ، واسترشدوا بهداه فتنسك منهم أبو ذر وصهيب ، وحذيفة ، وأبو الدرداء وأبو هريرة ، وعمران الخزاعى وغيرهم . وكانوا أول الامر يدعون بالزهاد أو العباد أو النساك أو البكائين أو الوعاظ ولم ينكر عليهم هذا المسلك أحد، لاصاحب الشريعة ولا اصحابه ، بل أقروهم على خطهم ، وفضلوهم على المستمتعين المتلذذين ، واعترف لهم كثير من الصحابة بكرامات ومعارف لاتتاح لكافة المسلمين .

على انه كيف يستطيع مؤمن ايمانا صحيحا الاعتراض عليهم ، وقد انتهلوا جميع العناصر الاولية لتنسكهم هذا من الكتاب الكريم والاحاديث القدسية والنبوية والسنة الغراء ، فاغترفوا من هذه المنابع السامية أصول الايمان ومبادىء التقوى وعناصر الذكر والفكر ، وقواعد التطهر الباطنى، وقوانين السلوك العلمى عندما تأملوا فى مثل الآيات والاحاديث الآتية : « **قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون والذين هم عن اللغو معرضون والذين هم للزكاة فاعلون** » أول سورة المؤمنين « **والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله ، أولئك سيرحمهم الله ان الله عزيز حكيم** » (سورة التوبة ، آية ٧٠) « **لن ينال الله لحومها ولادماؤها ، ولكن يناله التقوى منكم** » (سورة الحج ، آية ٣٦) « **الذين ان مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر، ولله عاقبة الامور** » (سورة الحج آية ٤٠) « **أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أمن أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به فى نارجهنم، والله لايهدى القوم الظالمين** » (سورة التوبة ، آية ١٠٨) « **قلنا اهبطوا منها جميعا فاما يأتيكم منى هدى ، فمن تبع هداى فلاخوف عليهم ولاهم يحزنون** » (سورة البقرة ، آية ٣٧) « **ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه ، فأولئك هم الفائزون** » (سورة النور ، آية ٥١) « **ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة الا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون . نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، ولكم فيها ماتشتهى أنفسكم ولكم فيها ماتدعون نزلا من غفور رحيم .ومن**

أحسن قولا ممن دعا الى الله وعمل صالحا وقال اننى من المسلمين ولاتستوى الحسنة ولا السيئة ، ادفع بالتى هى أحسن فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم • وما يلقاها الا الذين صبروا وما يلقاها الا ذو حظ عظيم » (سورة فصلت ، آية ، ٢٩ وما بعدها) « **فاذا قضيتم الصلاة فاذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبكم** » (سورة النساء ، آية ١٠٣) وقد علق ابن عباس رضى الله عنه على هذه الآية الأخيرة بقوله : أى بالليل والنهار ، وفى البر والبحر ، والسفر والحضر ، والغنى والفقر ، والصحة والمرض ، والسر والعلانية « **واذكر ربك فى نفسك تضرعا وخفيـــة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولاتكن من الغافلين** » (سورة الأعراف ، آية ٢٠٥) الى غير ذلك

ومن الأحاديث القدسية قوله جل شأنه

« وما تقرب الى عبدى بأحب الى مما افترضته عليه ، ولا يزال عبـــدى يتقرب الى بالنوافل حتى أحبه ، فاذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، ولئن سألنى فى شىء لأعطيته » وقوله : « اذا تقرب منى عبدى شـــبرا ، تقربت منه ذراعا ، واذا تقرب منى ذراعا ، تقربت منه باعا • »

ومن الاحاديث النبوية قوله صلى الله عليه وسلم : ذكر الله فى الغافلين كالشجرة الخضراء فى سط الهشيم » أو « ذكر الله فى الغافلين كالمقاتل بين الفارين » وقوله : « يقول الله أنا مع عبدى ما ذكرنى وتحركت شفتاه بى »

بان اذن مما تقدم ان المسلمين الأولين قد طفقوا منذ فجر الاســـلام ، يتأملون فى المثل القرآنية العليا ليتخذوا منها نبراسا يضيئون به أعمـــاق قلوبهم ليستكشفوا فى دخائلها عناصر الأحوال الروحية التى شاهدوها ممثلة فى نبيهم بعد أن ظفرت بالرضى الالهى العميم • ولقد ركزوا جهودهم الشخصية فى هذا التأمل حتى بلغ عندهم من العمق حدا لم تظفر بمثله كافة المسلمين • وهذا هو الذى سماه حسن البصرى فيما بعد : « علم القلوب والخواطر »

غير أن هذا المجهود الذى بذله أتقياء المؤمنين فى كشف سر هذه الحياة النبوية العملاقية لم ينجح كل النجاح ، بل ظلت هذه الناحية من نواحى الوجود البشرى ، وهى حياة ذلك النبى الأمجد ، سرا غامضا لم يكشف للناس منه الاجانب محدود • وهذا هو ماأتى بالمفارقات التى نشبت معاركها بين فرق المسلمين حول هذه الغصون المتفرعة المتشبعة من دوحة حياة ذلك النبى الأعظم • ولا ريب أن تباين التأملات الصوفية فى الحياة المحمـــدية الباطنية وسلوك الطرق المختلفة فى هذا ، واتضاح جانب معين منها أمام كل فريق من أولئك الأتقياء ، وتتابع الكشوف المتوالية لبعض جوانب هذه الحياة الباهرة ، كل ذلك يدل دلالة قاطعة على أنها لاتزال أحد أسرار الكون وخفايا الوجود •

ومن هذا يتضح أن السنة المحمدية عند هؤلاء الأتقيـــاء ، ليست هى الاحاطة بالأوامر الظاهريةوالافعال الخارجية واتباعها فحسب، ولكنها أيضا تطبيق أصول الفضائل الاخلاقية الباطنية « كالرضى بقضاء الله ، والتسليم لأمر الله ، والصبر على حكم الله أو الرضى بالقدر خيره وشره ، حلوه ومره » « **ان الله مع الصابرين** » « **الذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا انا لله وانا اليه راجعون** »

« **وكل أمـــر بقضـــاء وقدر وكل مقدور فمـا عنـه مفر** »
« **فكن له مسلما كى تسلمـــا واتبع سبيل الناسكين العلما** »

وعند هؤلاء المتحمسين ان تطبيق تلك الفضائل الخلقية الذى هو اعداد لمرتبة الفيض الالهى ، لايلبث أن ينمو ويتخذ مظهر قاعدة للحياة محـددة مترابطة معتـــدلة ومنهجية وعملية فى الوقت ذاته ، وهى التى تخلق من الخضوع الباطنى لقانون الاوامر السماوية ، طريق الطهر الخارجى ، وتجعل من الممكن اتصال الروح البشرية بربها .

الى جانب هذه العقيدة العظيمة التى اقتادت أولئك الأتقياء المخلصـــين الى التصوف ، كان هناك سبب قوى آخر دفعهم دفعا الى أن يقذفوا بأنفسهم فى بحر هذا السلوك المأمون الجانب ، وهو أنه لما اشـــتعل لهيب الفتنـــة السياسية الكبرى بين المسلمين فى أواخر حكم عثمان بن عفان ، ففرقت صفوفهم ، وشتت جموعهم ، فكر فريق من المؤمنين المتعددين الذين ليس لهم أهواء خاصة ، ولا أغراض شخصية ، وتدبروا فى مشاهدة العواصف العاتية ونتائجهـــا المحزنة بل المقلقـــة ، ونظروا فى قول الله جل جلاله « **واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم اذكنتم أعداء فالف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخوانا** » « **ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم** » ثم نظروا فى قول النبى الكريم : « اذا التقى المؤمنـــان بسيفهما فالقاتل والمقتول فى النار » .

تأمل أولئك المؤمنون المخلصون فى هذا كله ، ورأوا الكارثة التى تسرع نحو الأمة الاسلامية بخطوات واسعة ، فلم يجدوا الا الله موئلا يلتجئون اليه فى وسط هذه المعمعمة الضالة ، وبين براثن تلك الفوضى الشـــاملة والفتنة العمياء التى لاتحمل العقول والقلوب الا البلبلة والاضـــطراب ، والتفتوا يمنة ويسرة باحثين عن أثر للرابطة المقدسة التى كانت الى الأمس القريب تصل بينهم فى قوة ومتانة ، فلم يجدوا الا القرآن الكريم الذى كان هو البقية الباقية المحفوظة من عبث الأهواء « **انا نحن نزلنا الذكر وأناله لحافظون** » فانكبوا عليه متأملين متدبرين ، فالقوا فيه لحسن الحظ جميـــع العناصر الضرورية لقواعد الحياة الصالحة التى تســـمح لكل مؤمن مخلص بأن يتلقى الالهام الالهى فى قلبه ، وهذا هو مبدأ طريق التصـــوف « ومن سار على الدرب وصل » فلم يسعهم الا أن يهرولوا فى هذا الطريق المأمون

العاقبة فرارا من تلك الفتن الصاخبة التى تقذف بها أمواج خضم السياسة المضطربة المهتاج . وبهذا كان التصوف فى ذلك العصر هو المفـــازة التى التجأت اليها قلوب المؤمنين لتتحصن بحصنها المنيع ضد تلك الهلكة المحققة

ومن هذا يبدو جليا أن أرومة التصوف الأولى ، بل رموزه ومجـــازاته واستعاراته وعباراته الفنية ، لم تكن دخيلة على الاسلام من الملل والنحـــل الاجنبية كما زعم بعض السطحيين الذين قلدوا الفقهـــاء الاقدمين الذين حملوا على بعض أعلام الصوفية الأجلاء حملتهم الجائرة حين هالتهم جرأة فريق من المنتسبين الى تلك الطائفة ، وروعهم افتئـــات ذلك الفريق على الشريعة السمحة ، فرموه بالخروج على دين الله والمروق عن طاعته ، بـــل بالزندقة والكفر والتـــذليل لأهل الأديان الأخرى ، فلما رأى بعض المستشرقين هذه الفتن المشتعلة ، وتلك التهم الخارجة على حد الاعتـــدال ، اعتقدوا ان التصوف ليس من الاسلام فى شىء ، وما هم فى ذلك الا واهمون . وعندما رأى بعض المعاصرين من المسلمين هذه الآراء الخاطئة ، اعتنقوها على علاتها رغم بعدها عن الحق بعد العدم عن الوجود . ومن أمثلة ذلك ماسجله المغفور له الدكتور زكى مبارك فى كتاب «الاخلاق عنـــد الغزالى» اذ قال ما نصه : « وهذا التصوف الذى يترسم الغزالى آثار اصـــحابه ليس فى جملته مما تدعو اليه الشريعة الاسلامية ، وانما هو مزيج من عدة مذاهب هندية وفارسية ، ويونانية ، نقلت الى المسلمين وصادفت هوى فى نفوس الزاهدين منهم ، فوسموها باسم الدين ، ووضعوا لها على حسابه القواعد والاصول ونحن نحسب اننـــا ـ بعد الذى قدمناه ـ لسنا فى حاجـــة الى التدليل على بطلان هذا الرأى ومعرفة مصدره ومأتاه .

ومهما يكن من الامر فقد اهتدى كثير من المؤرخين القدماء ، والبـــاحثين الحديثين فى هذا الصدد ، الى الحق القويم ، فأنزلوا أماجد الصوفية منازلهم الحقيقية ، وأسهبوا فى العناية بحياتهم وشخصياتهم ، واطنبوا فى تفاصيل مذاهبهم وطرائقهم ، وتوسعوا فى الاشادة باحوالهم ومقاماتهم ، وأفاضوا فى ذكر معارفهم وكراماتهم ، ثم أيدوا كل ذلك بارجاعه الى الآيات والأحاديث وأنباء السلف من الصحابة والتابعين .

وأكثر من ذلك ان أدقاء المستشرقين الحديثين قد آمنوا بأن كنف التصوف وثيق ، وحصنه مكين ، وطريقه مأمون العاقبة ، والالتجـــاء اليه باخلاص مضمون الثمرة ، محقق النتيجة ، وسجلوا فى مؤلفاتهم ان أعلام الصوفية الذين فروا بدينهم عن ضوضاء الفتنة الى احضان التنسك والتأمل انما فروا من الدنس الى النقـــاء ، وألقوا بأنفسهم فى بحار النور واســـتجابوا من قدر الله بلطف الله ، ولم يزيدوا فى ذلك على أنهم انما كانوا مؤتمرين أمر الله الوارد فى كتاب الله ومترسمين خطى رسول الله الذى لاينطق عن الهوى ، والذى ماكانت أحواله الباطنية وأفعاله الظاهرية الا وحيا يوحى اليـــه من مولاه فينفذه على أكمل صور العبودية ، وفى اسمى مراتب المعارف اللدينية « وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا » .